٧ ـ بديع الزمان الهمذانى

للدكتور عبد الوهاب عزام

(تتمـــه)

يقول الحصرى : ان البديع حاكى ابن دريد . وهى رواية جديرة بالاهتمام . ولست أعرف ابن أحاديث ابن دريد إلا أن تكون بعض روايات التالى عن ابن دريد فى الامالى تتضمن هذه الأحاديث أو أشباهها . ومن ذلك ما رواه التالى عن ابن دريد من سؤال اعرابى فى المسجد : « قال أبو على وحدثنا أبو بكر رحمه الله ، قال أخبرنا أبو حاتم عن أبى عبيدة عن يونس ، قال وقف اعرابى فى المسجد الجامع فى البصرة فقال : قل النيل ، ونقص الكيل ، وعجفت الخيل ، والله ما أصبحنا ننفخ فى وضح ، ومالنا فى الديران بين رشمة . وانا لعيال جربة . فهل من معين ـ أعانه الله ـ يعين ابن سبيل ، ونضو طريق ، وفلسة ؟ فلا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت . » (١)

وأقرب من هذا الى المقامات حديث المرأة التى سكنت البادية قريبا من قبور أهلها (٢) ، وهو مروى عن ابن دريد أيضا ، ووصية رجل أعمى من الأزد لشاب يقوده (٣) ويؤيد هذا ماروواه بن خلكان عن المرزبانى عن ابن دريد (٤)

« وقال المرزبانى : وقال لى ابن دريد سقطت من منزلى بفارس

(١) الامالى ج ٢ ص ١٥٧ (٢) الرسائل ص ٧ (٣) ص ٢١٦
(٤) ابن خلكان : ترجمة ابن دريد

أيها الشرق . . . أحب أن أعتقد أن سكونك تحفز الاسد قبل أن يقفز ، وأحب أن أسمع أن صمتك استقرار العاصفة قبل أن تزأر وتثور وتدوى ، وأحب أن لو كان سيرك تسلسل النهر قبل أن يفيض ويطغى فيجترف السدود ويكتسح الحدود ويجتاح العالم . وأحب ألا يأكل بعضك بعضا ، وألا يقضى قويك على ضعيفك ، وأحب أخيرا ألا تضيق بالألم وألا يأخذك اليأس ، فلا بأس بالمحن لهيب يصفى الروح وينقى الجوهر وينقى العرض ، ويذكى الحفيظة ويغلى الدم ويفجر الثورات ؟

محمود البكرى القلوصناوى

فانكسرت ترقوتى فسهرت ليلتى . فلما كان آخر الليل غمضت عينى فرأيت رجلا طويلا أصفر الوجه كوسجا دخل على وأخذ بعضادتى الباب ، وقال أنشدنى أحسن ماقلت فى الخمر . قلت ماترك ابو نواس لاحد شيئا فقال أنا أشعر منه . فقلت ومن أنت ؟ فقال أنا أبو ناجية من أهل الشام وأنشدنى :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده
أتت بين ثوبى نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا
عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

فقلت أسأت ، فقال ولم ؟ قلت لانك قلت وحمراء ، فقدمت الحمرة ثم قلت بين ثوبى نرجس وشقائق فقدمت الصفرة ، فهلا قدمتها على الأخرى ؟ فقال ماهذا الاستقصار فى هذا الوقت يابغيض ؟

وجاء فى رواية أخرى أن الشيخ أبا على الفارسى النحوى قال أنشدنى ابن دريد هذين البيتين لنفسه ، وقال جاء بى ابليس فى المنام وقال أغرت على ابى نواس ، فقلت نعم ، فقال أجدت الا أنك أسأت فى شىء ثم ذكر بقية الكلام اهـ

فهذه الرواية عن ابن دريد تذكرنا بالمقامة الابليسية والمقامة الناجية من مقامات البديع .

وكذلك وصف الفرس فى المقامة الحمدانية يشبه وصف الفرس فى الأمالى (١) . ويمكن اذا أريد ، ذكر كل مايخطر بالبال ، أن يقال ان ابن دريد أزدى وعيسى بن هشام كأنه ينتسب الى الازد فى المقامة الفزارية .

وفى كتب الأدب كثير من القصص الصغيرة المصوغة فى أسجاع مختارة وكلمات منتقاة . ولكن مهما يقل فبديع الزمان فيما نعرف ، مخترع هذه القصص الخيالية التى عرفت فى الأدب العربى باسم المقامات ، وأما روايات اللغويين فقد رويت على أنها حقائق ، وأريد بها رواية اللغة قبل أى شىء آخر ، وحديث الراوى فيها مرسل لاصناعة فيه ، ولا يقصد فى الرواية على حين يستوى فى المقامة أو يتقارب من حيث البلاغة والفصاحة حديث عيسى بن هشام وكلام أبى الفتح الاسكندرى .

وأما تسمية هذه القصص بالمقامات فلأن أبا الفتح يقوم فيها واعظا أو مستجديا أو محتالا وهلم جرا . وفى القرآن الكريم :

(١) ج ٢ ص ٢٤٢

« عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » . وفى شعر لبيد :

ومقام ضيق فرجته بلسان وبيان وجدل

وقد استعملت كلمة « مقامة » فى معنى مقام . وفى رسائل الخوارزمى « ولكل مقامة مقالة » (١) . وفى شرح الشريشى لمقامات الحريرى « والمقامات المجالس واحدتها مقامة . والحديث يُجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا ، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس ، ولأن المحدث يقوم بعضه تارة ويجلس بعضه أخرى قال الأعلم : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب بحض على فعل الخير . »

والهمذانى نفسه يبين ذلك بقوله فى المقامة الوعظية « قال عيسى ابن هشام فقلت لبعض الحاضرين من هذا ؟ قال شخص قد طرأ لا أعرفه . فاصبر عليه الى آخر مقامته ، لعله ينبئ عن علامته »

يقول الثعالبى إن بديع الزمان أملى المقامات فى نيسابور ، ويظهر أنه أملى معظمها هناك ، وأنه أملى بعد مقامات أخرى كالمقامات الست التى مدح بها خلف بن احمد أمير سجستان . والحصرى يدلنا على تاريخ المقامة الحمدانية يقول إن البديع املاها فى شهور سنة خمس وثمانين وثلاثمائة : وأظنه أملى معظم المقامات قبل هذا

هل ارتجل المقامات ؟

يروى الشريشى عن بعض أشياخه أن البديع ارتجل المقامات ، وأنه كان يقول لأصحابه اقترحوا غرضا نبنى عليه مقامة فيقترحون ماشاءوا فيملى عليهم المقامة ارتجالا . ولا أحسب هذا حقا ، فبديع الزمان نفسه لم يدع هذا ، وقد فخر بالمقامات على الخوارزمى وتحداه أن يأتى بمثلها ، ولم يتحد بذكر الارتجال ، بل قال انه أملاها والاملاء لايقتضى ارتجالا .

موضوع المقامات

أراد البديع بمقاماته أن يدل على تمكنه فى اللغة ومكانته من البلاغة ، وقدرته على تصريف القول فى فنون شتى . هذا غرضه الأول ، وقد سلك الى هذا الغرض موضوعات كثيرة

وليست الكدية موضوع المقامات كلها ، بل كثير منها لا كدية فيه ، وفى كثير منها لايقف ابو الفتح موقف المستجدى الا فى آخر المقامة وبعضها ليس فيه الا الاستجداء كالمقامة الساسانية والمجاعية والبخارية والمكفوفية .

ومن أغراض المقامات الوعظ كالمقامة الوعظية والأهوازية ، وفى بعضها الالغاز كالمغزلية والابليسية . وبعضها أنشئ للمدح وهى المقامات الست التى مدح فيها خلف بن احمد : الناجية والخلفية والنيسابورية ، والملوكية ، والسارية ، والتميمية . وبعضها يتضمن الحجاج فى المذاهب كالمقامة المارستانية ، وبعضها للكلام عن الشعراء ونقد الشعر ، كالمقامة القريضية والشعرية والعراقية والابليسية ، وبعضها يتضمن حوادث زمانه وأخلاق معاصريه وأحوالهم ، كالمقامة الاسدية والخربة التى ترى فيها أبا الفتح اماما فى مسجد يشم رائحة الخمر من عيسى بن هشام وأصحابه فيزجرهم ويشتمهم ، ثم نراه بعد فى حانة يلقاه فيها هؤلاء ، وكالمقامة الرصافية التى ذكر فيها أصناف اللصوص وحيلهم . وهى تشبه القصيدة الساسانية لأبى دلف الخزرجى ، معاصر بديع الزمان .

وهو فى هذا الضرب من المقامات كالمقامة المغيرية ، والحلوانية ، يبين عن علم واسع باحوال زمانه ، ويذكرنا بالجاحظ ، والمقامات البشرية والصيمرية أقرب الى روايات الادباء : وهو حسن الفكاهة جدا فى المقامة المغيرية التى وصف فيها أبو الفتح ضيفه الثرثار ، والحلوانية التى يصف فيها اختلاف رجلين فى الحمام على أجرة عيسى ابن هشام والحلاق المجنون ، والاصفهانية التى وصف فيها الامام الذى يطيل الصلاة .

والظرف قول عيسى بن هشام فيما أصابه فى الحمام : « فاخذنا الى الحمام السمت ، وأتيناه فلم نر قوامه ، ولكنى دخلته » الخ المقامة الحلوانية

والقصص فى المقامات لاتفصيل فيه ولا اتقان ، وانما هو وسيلة الى مواقف الاسكندرى أو عيسى بن هشام ، ويحس القارىء بعيب فى بعض هذه القصص على قصرها : ففى المقامة الاصفهانية يحدثنا عيسى ابن هشام أنه كان على أهبة السفر فسمع النداء للصلاة ، وخاف أن تفوته القافلة ، ولكنه آثر أن يصلى فابتلى بامام مطيل ممل ، ثم قام رجل فقال من كان منكم يحب الصحابة والجماعة ، فليعرنى سمعه ساعة ، فلم يستطع عيسى الخروج ، ثم قال الرجل قد جئتكم ببشارة من نبيكم لكن لاأؤديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوته ، قال عيسى فربطنى بالقيود ، وشدنى بالحبال السود . ويدعى الرجل أن معه دعاء علمه اياه النبى فى المنام ، وأنه كتبه فى رقاع فتسابق

(١) ص ٨٠ ط القاهرة

الناس الى الرقاع ، وانثالت على الرجل الدراهم . وعرف عيسى بعد خروجه أنه أبو الفتح ، ولا يخبرنا ما الذى فعل فى أمر السفر الذى بدأ المقامة بحديثه . وفى المقامة الفزارية يقول انه لقى الاسكندرى فى ليلة يضل فيها الغطاط ، ولا يبصر فيها الوطواط . ثم يقول آخر المقامة ، لخدرثامه عن وجهه ، فاذا هو والله شيخنا أبو الفتح الاسكندرى ، فكيف عرفه فى الظلام ؟ وفى المقامة الغيلانية يحدث عيسى بن هشام عن عصمة بن بدر الفزارى أنه لقى ذا الرمة والفرزدق ، ولا يقول إنه لقيهما فى منام أو لقى شيطانيهما ، فكيف رأى هذين الشاعرين رجل معاصر لعيسى بن هشام الذى يحدث بديع الزمان .

وأما عيسى بن هشام وأبو الفتح الاسكندرى فيقول عنهما الحريرى فى مقدمة مقاماته : « وكلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تعرف . » وكأنه يريد أن يقول انهما ليسا كأبى زيد السروجى ، عيسى بن هشام لا ينتسب الى بلد ، وفى بعض المقامات كلام يمكن أن يؤخذ منه أنه ينتسب الى الازد ، وابو الفتح انتسب فى المقامة العراقية الى عيسى ، وهو منسوب الى الاسكندرية من الثغور الأموية وهى نسبة غريبة . ماذا يريد بالثغور الاموية ؟ . يرى شارحو المقامات أنها ثغور الاندلس ، وكانت بها اذ ذاك دولة بنى أمية . وهذا غريب كذلك فما عرف فى كتب التاريخ أو تقويم البلدان اسم الثغور الأموية ، ولا الظن بالبديع أنه ينسب صاحبه الى الاندلس ويسميها الثغور الأموية ، وهو رجل يكره الأمويين كما يؤخذ من شعره . أرى فى المسألة وجها آخر لا أجزم به ، ولكنى أرجحه . ذلك أن نقرأ (الثغور الآموية) . نسبة الى مدينة آمو أو أمويه وهى مدينة آمل الشط على نهر جيحون أو نسبة الى جيحون وهو يسمى آمو دريا أى نهر آمو . ويقول ياقوت فى معجم البلدان . وهو يعدد المدن التى سميت الاسكندرية : « ومنها الاسكندرية التى على شاطىء النهر الاعظم . » هذا الا أن يكون البديع نسب صاحبه الذى لا يستقر فى مكان نسبة لا يعرفها أحد .

وبعض المقامات لا يسمى فيها أبو الفتح ، وان عرف بصفاته كالأهوازية والبصرية ، وبعضها يخلو من أبى الفتح اسما وفعلا كالمقامة البغدادية والنهدية . وأحيانا يأتى ابو الفتح فى آخر المقامة بعد مضى معظم حوادثها كالمقامة الأسدية التى تصف لقاء عيسى بن هشام وأصحابه الأسد ، ثم قاطع طريق ، ثم لقاء ابى الفتح بعد ورودهم حمص .

اسلوب البديع فى نثره

البديع يلتزم السجع الا قليلا . وهو فى الرسائل اسجع منه فى المقامات ، وجمله قصيرة وسجعه متقارب . وذلك أحسبه تاج الطبع الذكى الحساس ، الذى يود أن يسمع الانغام متتابعة رنانة . وذلك ما جعله يؤثر فى كثير من شعره الاوزان المجزوءة . وهو فى الرسائل يترك السجع أحيانا الى المزاوجة أو الارسال كقوله فى رسالته الى ابى الطيب عن الامير خلف بن احمد : « فلما ايفع وارتفع ، طالبته الهمة العلياء برفض الدنيا حتى يؤدى فرض الله فى الحج ، فقام عن سرير الملك ، الى سبيل النسك ، فحج البيت ، ودرس العلم حتى علم ناسخ الكتاب ومنسوخه ، ومباحه ومحظوره الخ » وكذلك فى المقامات يترك السجع أحيانا ولا سيما فى رواية عيسى بن هشام .

وقد يأتى بثلاث سجعات متواليات أو أربع ، بل يتابع فى الرسائل عشر سجعات أحيانا كقوله : « ونادمته والمنادمة رضاع ثان ، وطاعته والمواكلة نسب دان ، سافرت معه والسفر والأخوة رضيعا لبان ، وقمت بين يديه والقيام والصلاة شريكا عنان ، وأثنيت علىّ ، والثناء من الله تعالى بكل لسان ، واخلصت له والاخلاص محمود من كل إنسان . ثم أربع سجعات أخرى على هذا الروى (١)

وقد يجعل السجع مركبا على رويين فى أربع فواصل أو ست كقوله فى رسالة خلف بن أحمد : (وكأن هذا العالم قد أحسن عملا فجعل هذا الملك ثوابه . وكأن هذا الملك قد أساء مثلا ، فجعل هذا العالم عقابه

وقوله : فكأن ما أضعناه ، كأنا زرعناه فأنبت سبع سنابل ، وكأن ما فقدناه ، كأنا أقرضناه هذا الملك العادل

وقد يسجع فى أثناء الجملة قبل تمام المعنى كقوله « حقا أقول أن الثمرة ، بالبصرة ، أقل خطرا من البدرة ، بهذه الحضرة ، وانى أيد الله القاضى على قرب العهد ، بالمهد ، قطعت عرض الأرض ، وعاشرت أجناس الناس ، (٢)

ومما يكثر فى نثر البديع تحليته بالشعر ، وقد قال الثعالبى فى ذلك : « ويوشح القصيدة الفريدة من قوله ، بالرسالة الشريفة من إنشائه ، فيقرأ من النظم والنثر ، ويروى من النثر والنظم . وهو لا يكتفى

(١) الرسائل ص ١٣٠
(٢) » » ١٦٣ و ١٦٤

بتفصيل نثره بابيات من الشعر ، بل يصل النثر بالشعر حتى يتوقف معنى كل منهما على الثانى ، كرسالته الى الخوارزمى التى ذكرناها فيما تقدم ، وكقوله فى مدح ابى جعفر الميكالى :

ولو نظمت الثريا والشعر بين قريضا
وكامل الارض ضربا وشعب رضوى عروضا
وصفت للدر ضدا أو للهواء نقيضا
بل لو جلوت عليه سود النوائب بيضا
أو ادعيت الثريا لاخمصيه حضيضا
والبحر عبد لماه . عند العطاء مغيضا
لما كنت الا فى ذمة القصور ، وجانب التقصير . » (١)

ومن أحسن افتنانه فى ذلك المقامة الوعظية التى لاءم فيها بين المنثور والمنظوم أحسن ملاءمة .

ويجد قارىء الرسائل والمقامات قطعا من احداها فى الأخرى فمقامة الوصية التى يوصى فيها تاجر ابنه معظمها فى احدى رسائله (٢) وبعض المقامة النيسابورية ومعظم العلمية ، فى رسالة الى أبى القاسم الكرجى التى وصف فيها بعض القضاة . وبعض المقامة الملوكية التى مدح بها خلف بن احمد فى رسالة يمدح فيها الملك نفسه .

وكذلك تجد فى الديوان والرسائل والمقامات وصف وقائع واحدة ، كلقاء الاسد فى الديوان والمقامة الاسدية ، وقطع الاغراب طريقه فى هذه المقامة والرسائل . وذلك يثبت أن المقامات تمثل كثيرا من حوادث زمانه .

نشأ البديع فى عصر بلغ فيه الأدب العربى أوجه ، وازدهر فيه الأدب الفارسى ، وقد عرفنا أنه ترجم كثيرا من الابيات الفارسية فى ديوانه . فهل ظهر أثر الفارسية فى معانيه وألفاظه ؟ أثر قليل .

فمن المعانى الشائعة فى الأدب الفارسى قوله « أولم يكفنا الجرح حتى ذر عليه الملح » وقوله « أنا العبد قرطك فى أذنه مطيعا وطوقك فى عنقه » فهى عبارة فارسية شاعت حتى كنى عن العبودية بالحلقة فى الأذن . وقوله : « ديناً لاتسع العيون جمالا » فتسع هنا تشبه كنجد بالفارسية

ومن الالفاظ الفارسية أو العربية المستعملة على الاسلوب الفارسى قوله فى مدح السلطان محمود :

اذا ما ركب الفيل لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطانا على كاهل شيطان

(١) الرسائل ص ٤٣ (٢) الرسائل ص ١٧١

فى هذا إشارة إلى قصة طهمورث والشيطان .

وقوله :

عندى فديتك جدى شويته بمضيره
فان أتيت فخير وان أبيت فخيره

فالخيرة فارسية معناها الخيرة أو اللبن . ولذلك قال الصديق الذى أرسل اليه هذان البيتان : لانبيع الخير بالخيرة وأجاب الدعوة . وقوله :

يابن النبى كفانى من الشاء وبسى

بسى بمعنى حسبى ، وهى كلمة بس المستعملة فى العامية المصرية .

وقوله فى الديوان :

فان مددت يدى يوما فلا رجعت حتى يعود على شسته النوق

والشست سية القوس ، والنوق تعريب نوك اى السهم .

وقوله : والدهر لونان فى تصرفه يضرب باليدق الغرازينا

وفى الرسائل الباغ بمعنى البستان ، وكتخداى الخلق ، وزرق بمعنى نفاق ، وقلب بمعنى زائف ، والسياسة فى معنى العقوبة ، وقوله « فان كان قد عرض فى البين عارض العين . » فاستعمال البين هذا هذا الاستعمال ترجمة كلمة « درميان » . وحصار بمعنى قلعة وغير ذلك .

هذا ما وسعه المقام فى الابانة عن سيرة الهمذانى وأدبه . ولا بد من ترتيب الرسائل ترتيبا تاريخيا لتفصيل سيرته ومعرفة تطور أسلوبه . وحسبنا الآن ماقدمنا عن هذا الأديب العظيم الذى اخترمته المنية فى سن الاربعين ، ولو عمر لكان عسى أن يكون له فى الأدب العربى آثار أبعد شأوا ، وأعظم خطرا وأسير ذكرا من آثاره التى أوحت الى معاصريه أن يلقبوه « بديع الزمان » ؟

عبد الوهاب عزام

مجموعة السنة الأولى للرسالة

لدى الادارة مجموعات مجلدة من السنة الأولى للرسالة تباع بخمسة وثلاثين قرشا غير اجرة البريد فى مصر وبخمسين قرشا فى البلدان الأخرى